مصنع الرجال

أقول لكم

محسن الهاجري

أذكر أنني عندما كنت طالباً في جامعة قطر.. كثيراً ما تقع عيناي على لوحة في جانب الطريق الداخلي المؤدي إلى مبنى الجامعة وكان مكتوباً عليها " الجامعة.. مصنع الرجال " كانت تلك العبارة بمثابة ترحيب لكل من يدخل إلى مبنى الجامعة سواء كان طالباً أم أستاذاً أم زائراً.. ولا أدري إن كانت تلك العبارة قد وضعها المسؤولون وقتها ضمن أهدافهم وإستراتيجيتهم ونحوه ولا أدري إن كانوا قد وضعوها لتذكير أنفسهم بتلك الإستراتيجية أو ذلك الهدف أم كانت مجرد عبارة ضمن عبارات المغالاة في المدح والثناء الذي تنتهجه أغلب إدارات العلاقات العامة في كل مكان.. ولا أدري إن كانت اللوحة التي أتحدث عنها موجودة أصلاً أم أنها أزيلت واندثرت مع الأيام.

الحديث عن صناعة الرجال يتطلب البحث عن تلك الوسائل الحقيقية التي تصنع الرجال وتكوّن شخصية الإنسان الناضج سواءٍ كان رجلا أو امرأة، لا مجرد أن نطلقها شعارات رنانة هنا وهناك، فالذي يريد أن ينشئ جيلا من الرجال والنساء الذينّ يكبرون سنهم من حيث المقدرة على الكلاّم والطلاقة في الحديث والرزانة في العقل والتفكير والرجاحة في الرأي والقدرة على الفهم والاستيعاب.. لا بد إذن أن ينتهج ويتخذ وسائل غير تلك الوسائل القمعية التي كنا كثيراً ما نشاهدها في مدارسنا وجامعاتنا..

كانت المدارس والجامعات في الدول العربية تحديداً في وقت من الأوقات لا تصنع رجالا ولا تكوّن شخصيات بل كانت تنتهج نهج السمع والطاعة ربما لأنّ الوضع السائد يومها كان مشحوناً بالحرب ضد إسرائيل الأمر الذي جعل باقي المؤسسات – غير العسكرية - الخدمية والتعليمية " تطلع حرّتها " في الفئات المستهدفة لديها، فكان الطلبة يتعلمون قسراً وكرهاً وكان بعض المدرسين ينتهجون نهج حرّاس السجون في الخروج والدخول ولا أعلم إن كان ذلك مطبقاً حتى يومنا الحالي، لأن التعليم قد أشكل عليّ فلم أفهم ماهية المدارس المستقلة من غيرها، أهو في الجودة أم في الاستقلالية المالية والإدارية..

ينبغي على التعليم أن يتخذ وسائل تتيح للطالب إبداء رأيه ونقد أستاذه حتى وإن كان في ذلك خروج عن المنهج أو الكتاب المدرسي، فلم يظهر العباقرة والمخترعون إلا بعد سؤالهم " لماذا؟ " أي أنهم أتاحوا لعقولهم التفكير في مساحات أكبر لا أن يحجّموها وأن يتبعوا غيرهم في كل شيء معقول وغير معقول، الأمر الذي أوجد لدينا جيلا من المقلدين الملغين لتفكيرهم وأدوات الاستيعاب والفهم لديهم، كمًا ينبغي علّى الأساتذة والمدرسين أن ينتهجوا نهج إتاحة الفرصة للموهوبين والمبدعين في إبراز مهاراتهم، وإتاحة فرصة الكلام للسائلين والمستفسرين من الطلبة لا أن ينتهجوا أسلوب السخرية والاستهزاء بالسؤال إذا خرج من طالب بطيء الفهم أو قليل الاستيعاب.. كما حدث وأن شاهدنا حالات كثيرة حتى ونحن في الجامعة (مصنع الرجال!) حيث كان بعض الأساتذة يتفننون في الاستهزاء ببعض الأسئلة والاستفسارات وتكتيم الأفواه وعدم تشجيعها على المحاورة والنقاش مما يولد لنا لنا جيلاً من الخائفين من إبداء الرأي أو الاعتراض أو حتى السؤال وطلّب إعادة الشرح، رغم أن الطالب في المرحلة الثانوية قد أصبح رجلاً يعتمد عليه، فما بالكم بطالب الجامعة الذي أصبح على وشك الزواج وتكوين أسرة، ولكنه العالم العربي المتأخر في مناهج التعليم والتربية وفي أغلب الأمور كالعادة.

والمتابع لطرق تدريس المدارس الأجنبية في الدول العربية يجد اختلافاً كبيراً في أسلوب التربية والتعليم، حيث يتاح للطالب مجال أكبر لإبداء رأيه وتتاح له الفرص للتعبير عن رأيه بل وشعوره، ناهيك عن تلك المساحة الكبيرة للتفكير والإبداع والابتكار حتى من خلال المنهج المدرسي، ولهذا فإن مخرجات تلك المدارس كانت عبارة عن طلبة متفوقين ومبتكرين ومميزين في كل شيء بخلاف بعض المدارس الحكومية التي تمارس الاضطهاد الفكري والتربوي بشتى صنوفه، مما دعا ببعض المدارس العربية الخاصة للحذو حذو تلك المدارس الأجنبية واستيراد المنهج البريطاني أو الأمريكي رغم أن العرب والمسلمين قد سبقوا تلك المناهج بمراحل، فالعرب في الجاهلية كانوا يبعثون أبناءهم للبادية لتهذيبهم وتعليمهم مكارم الأخلاق والكلام والمنطق والرأي، هذا دون أن يكون لديهم مدارس ولا هم يحزنون وإنما كانت الجهود تعتمد على طريقة تربية أهل البادية لأبنائهم وتعليمهم الفصاحة والبلاغة.

أتمنى كما يتمنى غيري من المهتمين بشأن التربية والتعليم للأجيال القادمة بأن نتطور في أساليب تربيتنا وتعليمنا فننهج منهج العرب في الجاهلية قبل الإسلام عندما يرسلون أبناءهم للبادية على أقل تقدير فيرجعون إلينا يعرفون كيف يتكلمون ويتعاملون بكل تهذيب وأدب جم، أو حتى كما تعلم بعض آبائنا وأجدادنا فوق حصير الكتاتيب والمساجد لا كما يخرج طلبة الجامعة الآن ويدخلون سوق العمل وهم لا يعرفون كيف يتفوّهون ولا كيف يتحدثون فضلاً عن خجلهم وانزوائهم وعدم اندماجهم بسرعة مع غيرهم.. هذا ما نتمنّاه جميعاً فهل من مستوعب للرسالة؟

mohsen-qtr@hotmail.com
www.almomayzon.com